حياة المازني

المرأة في حياة المازني

ما أكثر ما عشقت في تلك السنوات الأولى
من شبابه المازني

للأستاذ محمد محمود حمدان

رثى المازني زوجته فكأنما كان يرثي نفسه أو بضعة منه ، لا مجرد زوجة ، ويناجيها في تفجع مرير « وا أسفي عليك ، لا بل علي ، لم يبق إلا طيف يعتاد ذاكرتي . لا أثر على الرمال الخائنة التي كنا نمشي فوقها ونرقد عليها ونملأ أكفنا منها ، وندع ذراتها تتساقط خيوطا من بين فروج أصابعنا . ولقد نسيتك النجوم التي كنت تحبينها وتشيرين إليها ببنانك وتعدينها ، ولم تستوحش خلو مكانك إلى جانبي تحت عيونها المتلاحة ، بل هي لم تذكرك حتى يقال نسيتك . والقمر ، الذي كنت تأنسين بطلعته وتحالسينه النظر من بين خصل شعرك الدجوجي المرخى على وجهك تحت ضوئه الفضي اللين ، لا يزال يبتسم كالعهد به ابتسامة السخر والسهوم كأنه لم يفتقدك . كلا ما من شيء فيما أرى يحس افتقادك ، كأنك لم تحبي وجه هذه الطبيعة الخامدة الحس الميتة المشاعر ، التي تروعنا ولا تحفلنا ، وتنبينا ولا تذكرنا .. وماذا أنا الآن ؟ حي من الأحياء لا يدري الناس أني مت منذ سنين ، وأني قبر متحرك كشمشون ملتون ، أو جثة لم تجد من يدفنها ، أو صورة باهتة لما كنته في حياتي . ولقد كنت كما يتوهمني الناس الآن ، حيا تتدفق الدماء الحارة في عروقي ، فلما تأملت مصائر الخلق ركدت الدماء قليلا وابتردت ، ومات مني شيء . ثم قضى ولدانا فأحسست دبيب الفناء ، وضحى ظلك فتساقطت أزهار الحياة بين يدي وذوت نوارات آمالي تحت عيني ، وإذا كفي ملأى بميت الزهر مما تطفت قدما »

* * *

وكان يتخذ بيته في ذلك الحين على تخوم العالين أو على حدود الأبد ، ويستريح إلى قضاء لياليه في الصحراء حيث يلفه الظلام في شملته ، ويرقد على الرمال كما كان يفعل مع زوجته ، ويجعل عينه قيد السماء ، يراعي النجوم ويناجيها ، وتذهله خواطره السود عن نفسه وما حوله

وإنه لغارق في لجج هذه الخواطر ذات ليلة — والجو ساج شاحب بدره — « .. إذا بفتاة رود تعدو إلى وتناديني باسمي ، فأفقت ورددت إلى الدنيا ولكن كما يفيق المغشى عليه ؛ يتلفت في كل ناحية ويسأل أين هو ؟ ويعجب لنفسه ولمن حوله ، ويذهله بعض الكلال ، وعلى عينيه كالغشاوة . ثم اعتدلت فوق الرمل ونهبت حواسي ومداركي بجهد ، وقلت : من عسى تكونين يا فتاتي ؟ قالت : لقد ذهبت أملأ جرتي من بيتكم هذا كعادتي كل ليلة بعد أن تنقطع الرجل ، ألم تري قبل الليلة ؟ قلت : نعم ولكني لم أذكرها . فمضت في كلامها وهي تلهث وتلقي على الأسئلة ولا تنتظر جوابها : إني كل ليلة أنسال إلى البيت وجرتي تحت ملاءتي وأدفع الباب برفق . لماذا لا توصد بابك ؟ ألا تخشى سارقا ؟ ولكن لو كنت توصده لتعذر علي أحيانا الدخول ، ولكنت أخجل أن أرعجكم كل ليلة من أجل جرة ماء ! وبعد أن أدخل وأضع جرتي في الحوض أتركها تمتلئ على مهل وأرود الحديقة ، ولكني والله لم أقطف منها شيئا ، وإن كنت أحب ثمر الحناء . وقد انتهرتني ليلة وأنا أتمشى تحسبني أريد أن أسرق ، فخفت وبكيت في الطريق وقلت كيف يسيء الظن بي . نعم ، كيف أسأت الظن بي ؟ فقلت : لم أكن أعرفك يا فتاتي فلا تغضبي ، وخذي ما شئت من الحديقة فما بها ما يستحق أن يضن به المرء . فانحنت إلي وأنا قاعد على الرحل ووضعت

راحتيها على ركبتيها وأكبت بوجهها على وجهى وحدقت في عيني وقالت بلهجة العاتب المحاسب : كيف لم تكن تعرفنى ؟ ألست أحييك كلما دخلت ورأيتك جالساً في ذلك الركن المظلم تحت الكرمة ؟ فتناولت وجهها بين كفى وجذبته إلى فى رفق وقبلتها ، إذ لم يكن ثمة بد من ذلك ، وقلت : لا تغضبي يا فتاتى ، وإذا كنت تريدين ثمر الحناء فاجنيه كله ، أو العنب فعناقيده لك ، ولكن خبريني من دلك على مكانى ؟ ونهضت ، فعادت إلى التحدث وقالت : من دلنى ؟ ياله من سؤال ! كأن الدنيا كلها لا تعرف ، ولقد وجدت بابك الليلة موصداً فعلمت أنك خرجت إلى هنا فجئت أبحث عنك لتفتحه لى ، فإنى أستحي ان أقرعه قلت : أحسنت ، فتعالى إلى هذه الصخرة . قالت : لماذا ؟ قلت : لتعدى لى النجوم ! قالت : أو هذا ممكن ؟ إنها كثيرة جداً جداً ! قلت : نعم ، ولكنك كلما عددت نجماً وأسرت إليه بأصبعك اختفى واستمر حتى لا يبق فى السماء ولا الأرض إلا عيناك ! قالت : أصحيح هذا ؟ وجعلت تثب وتصفق حتى لخلتها إحدى بنات الليل . ومضينا إلى الصخرة وجلست وأجلستها على ركبتى وطوقتها بذراعى ، وانطلقت هى تعد النجوم وأنا ألثم فاها كلما عدت واحداً ، وهى فرحة بلثماتى ، تردها مضاعفة حارة ، وتهز رأسها وتنفض شعرها ثم تلق بنفسها على ذراعى كرة أخرى وتستأنف العد ووجهها إلى السماء وشعرها المرسل متدل إلى الأرض ... »

وأياً ما كان أمر هذه العلاقة العابرة وحظها من الواقع أو الخيال فثمة علاقة أخرى مما عرض للمازنى فى تلك الفترة من حياته ، بعد وفاة زوجته ، لا شك فى أنها حقيقة مؤكدة وواقع صرف . وذلك حيث يذكر فى مقدمة روايته « إبراهيم الكاتب » أنه عرف سيدة نمسوية (١) تزاول الصحافة والتعليم فى آن معا ؛ وتوثقت بينهما الصداقة فقد طال مقامها فى مصر . وكانت — كما يصفها — حسناء فى مقتبل العمر ، عالمة واسعة الاطلاع فى الآداب والفلسفة على الخصوص . ويقول المازنى إنها أطلعته على صفحة من حياتها حافلة بالكروب والمتاعب . ولعلها وجدت فيما حدثها به من أزمة حياته — وكانت لا تزال تعاوده صبابة من الحزن على فجيعته بفقد زوجته — ما جعلها تعطف عليه وتأنس به وزاد ذلك بينهما حتى آض ، على الأيام ، صفوا وتعاطفا ووداً .. « حتى لقد هممت بأن أتخذها زوجة ، ثم عدلت عن ذلك وصرفت نفسي عنه ، وصارحتها بالسبب ، وإن كنت لا خطبتها ، ولا كان بيننا ما يخطر ببالها أنى قد أعرض عليها الزواج »

* * *

كلا ! لم يحى المازنى قط بمعزل عن المرأة ، فقد كانت أكبر علائق الحياة عنده ، وعليها درس فلسفة الغريزة والجنس ، ومن معرفته وفهمه لطبيعتها كانت شخوص قصصه من النساء نماذج طبيعية للمرأة تصدر جميعا عن فطرة سليمة وعاطفة مستقيمة . على أنه لم يكن يرتفع بالمرأة فوق مكانها من الجنس أو ينأى بها عن وظيفتها إزاء الرجل والنوع كله ، فهى عنده الأنثى التى هيأتها الطبيعة لتكون أداة حفظ النوع وصيانته

وقد ماتت عنه زوجته الأولى فما لبث أن تزوج بعد سنوات لأنه لم يستطع كما يقول أن يشيح بوجهه عن أهم جانب من جوانب الحياة . وما كان ليعترف بالعزوبة أو يؤمن بجدواها فى حياة الأديب . ويقول إن أكبر مزية للزوجة هى أنها « سكن » وأنها تفيض على نفس الرجل وتفرغ على قلبه سكينة هى فى رأيه السعادة التى يحق للانسان أن يطمع فيها ولا يعجز عن الفوز بها . والزوجة عنده سبيل معرفة المرأة فليس يعرف المرأة من لا يعرف الزوجة ولو عرف ألف امرأة غيرها »

والحب ، أو هذه العاطفة التى تكون بين الرجل والمرأة ، أو بين الذكورة والأنوثة على الإطلاق ، هو عند

(١) الدكتور لوته اشترنباخ جارنتر ، وكانت تعمل مراسلة لصحيفة neue wi e النمسوية

المازنى مظهر الغريزة النوعية فى الإنسان أو هو الوسيلة التى تتخذها الحياة لبقاء مظهرها الإنسانى ، والأداة التى تستخدمها لحفظ النوع . وهو بهذه المثابة ، ليس إلا ضربا من الجوع ، كالجوع إلى الطعام ، وإنما يشتهى المرء بغريزته النسل فيطلب المرأة ، وتشتهى المرأة النسل فتطلب الرجل . وليس الرجل أو المرأة بعد ، كما يقول المازنى ، بالغاية المقصودة من هذا الشعور الدافع الذى نسميه الحب ، وإنما الغاية هى استخدام هذا الشعور لاتصال الرجل بالمرأة اتصالا يؤدى إلى التناسل أى حفظ النوع

وعند المازنى أن الحب أشد استغراقا للمرأة ، لأن مدار حياتها على حفظ النوع . ولهذا كانت الغريزة الجنسية فيها أقوى منها فى الرجل

ولا يؤمن المازنى بما يسمى الحب العذرى أو الأفلاطونى ويقول إنه « مظهر شذوذ أو ضعف فى الطبيعة الإنسانية » وآية ذلك عنده ما ينتهى إليه فى أكثر الحالات من الخبل أو الجنون .. « وإذا كان الحب لا يدفع إلى طلب الجنس الآخر فلا بد أن تكون هناك علة أو آفة كالعلة التى تصرف الجائع عن الطعام »

وليس الحب عنده بعد ذلك تضحية أو إيثارا أو شيئا من هذا القبيل ، بل هو أنانية صارخة من كلا الجانبين على السواء « فكل محب همه الاستيلاء على محبوبه والاستئثار به دون خلق الله جميعا »

على أن أهم ماذهب إليه المازنى فى فلسفة الحب هو رأيه المعروف القائل بالتعدد ، وأن القلب الإنسانى يتسع لأكثر من حب واحد فى وقت واحد ، أو فى أوقات متقاربة ، وإن اختلف كل حب فى القوة والنوع والوجهة ، وهو بعد حب صحيح يعلق القلب ويحرك الحس ويغير فى النظرة إلى الحياة . ويؤكد المازنى أن الإنسان لا يعرف التوحيد فى الحب ، « فلا الرجل يعرفه ولا المرأة تعرفه ، والحقيقة أنه أكذوبة ضخمة وخرافة يلهج بها اللسان ولا يصدقها القلب » . وقد كانت زوايتاه الطويلتان إبراهيم الكاتب وإبراهيم الثانى تطبيقا لهذا الرأى وتمثيلا له فى هذه الحدود

* * *

والكلام عن المرأة فى حياة المازنى لا يتم بغير الإشارة إلى شخصية كان لها أثرها البارز فى حياته وأدبه

تلك هى أمه . وقد مر فى بعض هذه الفصول وصف وجيز لها . وهنا نقول إنها كانت لابنها أكثر من أم ؛ فقد كانت له فى طفولته أمه وأباه ، وكانت له فى رجولته أخته وصديقه . وكان ، وهو أب وزوج ، يعود حيالها طفلا لا رأى له دونها ، ويكل إليها كافة شأنه تصرفه له وتعينه عليه . ومن الحوادث التى تدل على شخصيتها القوية وأثرها الموحى ، أنه جاءها يوما ، عقب استقالته من وزارة المعارف وكان ذلك فى بدء الحرب الكبرى ، فألقى بين يديها بقراطيس فيها (مرتبه) نقودا فضية ، وقال لها : هذا آخر ما أقبض من مال الحكومة . قالت : يعنى ؟ فأخبرها أنه استقال ، فلم تزد على أن قالت : على بركة الله

ومن حنانها عليه وحبها له أنها كانت تقاسمه الدواء إذا مرض ، وتجرع منه أمامه قبل أن تقدمه إليه ، فينكر ذلك منها ويقول لها يا أمى كفى عن هذا . فلا يكون جوابها إلا أنه قلب الأم

وقد كان المازنى ينطوى لها على الحب والاحترام والوفاء وأهدى إليها فى حياتها كتابه « رحلة الحجاز » وكان لا يفتأ يذكر فضلها عليه ، ويسرد حوادثها معه ، ويتحرى فيما يعمل مرضاتها وهناءتها . ويقول : لو وسعنى أن أجعل حياتها نعيما خالدا وسرورا دائما وجذلا لا تنضب ينابيعه ولا تجف موارده لما قصرت ولا كنت صانعا إلا بعض ما يجب لها » . فلما ماتت ظل يستوحيها فى كل ما يقوم بخلده أو ما يمضى عزمه عليه ، كأنها حاضرة معه لم تفارقه وكان ربما عن له الشىء فلا يلبث أن يستدبره وينصرف عنه ، لما يقوم فى نفسه من أن أمه لم تكن لترضاه له أو تشير عليه به لو كانت بقيد الحياة

محمد محمود حمدان